

1999

الجد والهزل - بحث في الدلالة والعلاقة

أحمد الشايب

chaibahma@yahoo.com, كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، جامعة ابن زهر، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Arabic Language and Literature Commons](#)

Recommended Citation

الشايب, أحمد (1999) "الجد والهزل - بحث في الدلالة والعلاقة" *Dirassat*: Vol. 9 , Article 6.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol9/iss9/6>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

الجد والهزل

بحث في الدلالة والعلاقة

أحمد الشايب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أكادير

يسعى هذا المقال من جهة إلى البحث في دلالة ثنائية الجد والهزل وإلى توضيح العلاقة القائمة بين عنصري هذه الثنائية، كما يسعى من جهة أخرى إلى الوقوف عند رأي الجاحظ في الهزل، وهو واحد من أشهر من صنفوا في هذا الباب إذ ترك إلى جانب آرائه النظرية أعمالاً إبداعية وثيقة الصلة بهذا الموضوع أكثر من أي مصنف آخر.

1. الجد والهزل، التعريف المستحيل !

1.1. الهزل

لعل الثقافة الإنسانية لم تعرف ثنائية ملتبسة ومثيرة للجدل والنقاش كثنائية الجد والهزل، إلى جانب ثنائيات أخرى تتقاطع معها، كالضحك والبكاء، والمأساة والملهاة. ذلك أن أعظم المفكرين في التاريخ خصصوا أبحاثاً لهذا الإشكال، أو أشاروا له عرضاً خلال أعمالهم الفكرية والفلسفية، بدءاً من سقراط وأفلاطون وأرسطو... وانتهاءً في العصور الحديثة بدارون وسبنسر، وسگموند فرويد، وهنري برگسون، وأبحاث كثير من اللسانيين والتداوليين والأنثربولوجيين، وهؤلاء الباحثون على ما عرفوا به من عمق فلسفي

في كتاباتهم ورسالة معرفتهم، لم يحسموا في شأن الضحك والهزل كأحد تفرعاته، ولم يخلفوا لنا تعريفا جامعاً مانعاً يحيط بهذه الظاهرة من جميع جوانبها ويفسر كل تجلياتها، إذ كل ما يجده القارئ والباحث هو تفسيرات لجوانب من هذه الظاهرة، انطلاقاً من وجهات نظر مختلفة. وقد دفع هذا الأمر بعض الباحثين إلى القول باستحالة وضع تعريف شامل للهزل والفكاهة، فلوي كازاميان يضع عنواناً متشائماً لمقال له بهذا الصدد هو: «لماذا لا يمكننا وضع تعريف للهزل؟» يذهب فيه إلى أنه «من المحال وضع تعريف شامل للهزل لأن خصائصه الثابتة قليلة العدد في حين أن عناصره المتحولة غير محدودة».⁽¹⁾ وعلى الرغم من ذلك نجده يقترح في ذات المقال تعريفاً شكلياً استيعابياً للهزل كما يقترح أن يفسر في إطار أعم هو نظرية المضحك. والمعاجم الأنكلوسكسونية حين تشير إلى كلمة: Humour تحيلنا على شيئين متباينين أشد ما يكون التباين. ففي دائرة المعارف البريطانية نجد في تفسير هذا الجذر: أنظر Fluid، وأنظر Wit، فهو يعني السوائل أو الأخطا في الجسم الإنساني، وهي الدم والبلغم والمرء والمرءة السوداء. وقد زعم الفلاسفة والأطباء القدماء أنها تقرر صحة المرء ومزاجه ووضع أبوقراط Hippocrate هذه النظرية⁽²⁾ ونشرها الفلاسفة والأطباء العرب فيما بعد، كما يعني هذا الجذر من جهة ثانية الفكاهة والهزل والظرف وخفة الدم.

ولم تشذ المعاجم العربية والدراسات حول الفكاهة عن هذه القاعدة، فدلالات الفكاهة تتسع لتشمل الهزل والمزح والدعابة والنكتة والنادرة والظرف والسخرية والتهكم والهجاء والتورية وكل ما يشير الضحك أو له علاقة بالضحك. يقول أحمد الحوفي:

«وإذن سندرس الغفلة والتغافل والتناقض والتخلص الفكاهة والدعابة والمزاح والهزل والتهكم والسخرية واللعب المعنوي واللعب اللفظي على أن كلا منهما فكاهة إذا كان مثيراً للضحك، لأننا نريد بالفكاهة كل باعث على الضحك من فنون القول وإن اختلف الاسم»⁽³⁾.

(1) Pourquoi nous ne pouvons définir l'Humour ? Louis Cazamian in : Revue Germanique 1906, p. 631.

L'humour, Robert Escarpit, puf, p. 11

(2)

(3) الفكاهة في الأدب، أصولها، أنواعها، ص. 1-2.

بل إن بعض الدارسين يستعملون هذه الكلمات باعتبارها مترادفات . الشيء الذي يشوش على البحث في هذا المجال ويعوق تقدمه، إذ نجد داخل هذه الأبحاث خليطاً من الأنواع الأدبية والأنماط الحكائية والأساليب البلاغية.

وتبعاً لتعدد دلالات الفكاهة واتساعها وتداخلها تعددت أيضاً وجهات النظر التي تناولتها بالدرس والتحليل، من لسانية وسيكولوجية وانثروبولوجية «فكل فرع من فروع المعرفة ينظر إلى الموضوع من جهة مغايرة، حيث ينظر علم النفس إلى تمظهرات وتجليات الفكاهة : (agressive, sexual, scatological)، وينظر عالم الفولكلور والناقد الأدبي إلى الأنواع كالنكتة والنادرة والأحدثة» (4).

وإذا جاز اعتبار الضحك هو الحد الأكبر الذي يجمع هذا الشتات من المضحكات فإنه لا يمكن التماس علة واحدة للضحك، ومن هنا اختلفت آراء كل من سبنسر وفرويد وبركسون عن بعضها البعض. يقول عباس العقاد «إن التماس علة واحدة لجميع الضحك خطأ لا يؤدي إلى رأي صائب، لأن الضحك وإن كان اسمه واحداً إلا أنه ليس بظاهرة واحدة حتى يكون له سبب واحد» (5).

2.1. الجد

وليس الهزل بشكل خاص والضحك بشكل عام هو المستعصي عن أي تعريف أو حصر، بل إن الجد يعرف الالتباس ذاته، فبقدر ماهو دال وموح هو أيضاً ملتبس وغامض، وقد سعى بعض الباحثين إلى تعريفه بمقابلته باضداده، ذلك أن : «الجد ليس واحداً، لكن مجموعة من الأضداد المختلفة والمتباينة» (6)، والإنسان الجاد هو كائن فعال له وزن وثقل في الجانب العملي، كما أن السؤال الجاد هو سؤال يهتم قدر الإنسانية جمعاء ومصيرها، والجد يكتسب مشروعيته ومصادقيته من علاقته بالواقع وما يكتنفه من صعاب وعراقل، وكلما كانت العراقل صعبة وكانت المجموعة المهمة بها واسعة كانت المسألة جادة، وكل مسألة يمكن أن تكون جادة إذا نحن أعطيناها كل انتباهنا وارتبطنا بها حتى أمهينا

Linguistic theories of Humor, Salvatore Attardo, p. 5.

(4)

(5) جحا الضاحك المضحك، عباس محمود العقاد، ص. 41.

Le Sereux et ses contraires, Jean Chateau in Revue Philosophique 1950. Tome CXL, p. 441.

(6)

فيها. والجد نسبي أيضا، فقد يكون الأمر جدا بالنسبة لي وليس جدا بالنسبة للآخر، بل قد يكون الأمر جدا بالنسبة لي اليوم ولا يكون كذلك غدا. فاللعب بالنسبة للطفل أمر جاد يملك عليه كل حواسه ويشغل جل اهتمامه، فهو يعتبر المتخيل واقعا ويعيش في عالمه الخاص غير عابئ بعالم الكبار وما يزخر به من مسائل جادة - إن اللعب بالنسبة له ليس مجرد تسلية أو راحة واستجمام تعقب الجد والكد أو تسعى إلى التخفيف من ضغط الحياة ومشاكلها إنه هو الجد كل الجد.

بل إن موقف الراشد في اللعب قد يكون قريبا من الجد أيضا، خصوصا عندما يلتزم بقواعد اللعبة ويعطيها كل اهتمامه، غير أنه خلافا للطفل يشعر بعالم آخر وراء عالم اللعب، هو عالم الجد، وفي مقابلته بين هذين العالمين يظهر له عمله مناقضا للجد وضربا من اللهو واللعب ليس غير.

وإذا نحن أردنا أن نجد مثالا لمنتهى الجد أو الجد الكامل: «فعلينا أن لانبث عنه عند الإنسان، لكن عند الحيوان، فالإنسان لحسن حظه - إذا نحن تركنا جانبا الحالات الاستثنائية لعواطفه وأهوائه القوية - نادرا ما يصل إلى أقصى درجات الجد التي ينمحي معها بقية العالم الخارجي لحساب المشروع الآني والاهتمامات الراهنة، إذ تبقى دائما في فكره بعض أحكام اليقظة غير الجادة، وبعض المشاريع الغامضة، إذ من الصعب عليه أن يهتم فقط بفكرة أو شغل أو حتى حب. في حين يمكن للحيوان أن يبلغ هذا الموقف الغريب لأنه موقفه الطبيعي وهل هناك من هو أكثر جدية من دجاجة تنقر الحب، أو كلب أمام عظم؟ إن العالم يستحيل بالنسبة لهما إلى حبة قمح أو عظم أما ما سوى ذلك فلا وجود له» (7).

ويمثل سلوك اللاجد اللاعب والحالم والضاحك، وهناك قاسم مشترك بين كل أشكال اللاجد، حيث نجد نفس التقسيم إلى عالمين، ونفس الانفصال عن عالم إلى آخر، نجد هذا في الموقف اللعبي *L'attitude ludique*، وفي الموقف الاستيطقي كما هو الحال في الرواية التي تستبد بتفكيره إذ تصبح هموم البطلة هموما حقيقية بالنسبة لي، وفي المسرحية التي تأخذ بشغاف اهتمامي، غير أنني لألث أن أنزلق أو أنفصل عن عالم الخيال إلى عالم الجد أو الحقيقة. نجد هذا الانفصال في أحلام اليقظة وفي الهزل

والسخرية «فالضحك والنادرة والسخرية كلها غير جادة، لماذا؟ لأنها ترسم عالماً دون أن تنسى وجود عالم آخر هو عالم الجد، ماهو مضحك ليس هو العادي أو اليومي بل بالعكس ما يناقض اليومي والعادي وينفصل عنهما ليكون عالماً جديداً». (8) ولا يكفي أن يكون هناك تفاوت بين مستويين من التفكير أو بين عالمين لكي يظهر المضحك بل يجب، إضافة إلى ذلك، أن أنفصل وأتجرد من الموقف تجرداً كلياً وأن أعتبر فقط ماهو آني ومباشر أو أن أكون، بتعبير آخر، متفرجاً خارج اللعب أو في حالة شرود.

وإذا نحن عدنا إلى المعاجم العربية المشهورة نجدها تعرف الجد بالإشارة إلى أضداده. فقد ورد هذا الجذر بمعنى الاجتهاد وكنقيض للهزل. ففي تاج العروس نقراً: «الجد بالكسر الاجتهاد في الأمر، وجد به الأمر إذا اجتهد، وفلان جاد مجتهد... والجد نقيض الهزل، وفي الحديث لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لآعبا جداً، أي لا يأخذنه على سبيل الهزل فيصير جداً» (9).

وفي لسان العرب: «الجد نقيض الهزل... والجد الاجتهاد في الأمور» (10) كما وردت هذه الكلمة نقيضاً للمزح: «المزح الدعابة وفي المحكم المزح نقيض الجد» (11).

فالجد إذن نقيض اللعب والهزل والمزح والفكاهة، والجد واحد وأضداده متعددة كثيراً ما يعرف بها، ويدرك معناه من خلال مقابله بمعانيها، وقد يعني خلط الجد بالهزل المجون في بعض السياقات كما جاء في لسان العرب: «المجن خلط الجد بالهزل يقال قد مجنت فاسكت» (12). ولم يرد ذكر لكلمة جد في القرآن الكريم في حين وردت كلمة الهزل في قوله تعالى: «إنه لقول فصل وما هو بالهزل».

ولعل الشعر العربي القديم يسعفنا أكثر من المعاجم في تبين دلالة الجد وأضداده التي تتراوح بين اللعب واللهو والهزل والفكاهة والسخف والباطل، إذ لم يرد ذكر للجد إلا وورد معه نقيضه، وقد جاءت أغلب هذه المعاني في سياق المدح والثناء على الممدوح بكونه يجد في مواطن الجد ويلهو في مواطن اللهو وأشهر الأبيات في هذا الصدد قول أبي تمام في مدح المعتصم:

IBID, p. 449.

(8) تاج العروس، فصل الجيم من باب الدال.
(9) لسان العرب، فصل الجيم حرف الدال.
(10) نفسه، فصل الميم حرف الحاء.
(11) نفسه، فصل الميم حرف النون.

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب (13)
وقوله يمدح عمر بن طوق :

الجد شيمته وفيه فكاهاة سجَّحٌ ولا جد لمن لم يلعب
فالفكاهاة والمزاح واللعب قيم مدحية مستحبة في الممدوح يستعين بها على الجد
في الأمور .

ونجد الإشارة إلى اللهو واللعب كمقابلين للجد في أبيات غزلية له ، من قصيدة
يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات ، يقول في أوربة :

كانت لنا ملعباً نلهو بزخرفه وقد ينفس عن جد الفتى اللعب (14)
وقد يرد الجد مقابلاً للباطل كما في قول المثقب العبدى في وصف ناقته :

فأبقى باطلي والجدّ منها كدكان الدرابنة المطين (16)
وقال عبدة بن الطبيب في السياق ذاته :

خرق يجدّ إذا ما الأمر جدّ به مخالط اللهو واللذات ضلّيل (17)
ويقول ابن الرومي في الحسن بن عبيد الله بن سليمان :

يجد جدّ بعيد الهمّ منتدب لكل خطب جليل كل منتدب (18)
ويفكه الحال بعد الحال مقتفراً آثار من قرن السلاء بالرطب

(13) ديوان ابن تمام ، ص. 40.

(14) شرح شعر أبي تمام ، التبريري ، ج. 1 ، ص. 102.

(15) نفسه ، 12 ، ص. 242.

(16) المفضليات ، ص. 144.

(17) نفسه ، ص. 134.

(18) ابن الرومي ، الديوان ، ص. 211.

وقد يرد الجد أحيانا نقيضا للحق، والمقصود بالحق في هذا السياق الهزل والفكاهة، يقول صاحب الأغاني في وصف أبي العبر وهو من أشهر الفكهين المتحامقين : «هو أبو العباس بن محمد بن أحمد ويلقب بحمدون الحامض وعندما ولي المتوكل الخلافة ترك الجد وعدل إلى الحق ... وكسب بالحق أضعاف ما كسبه كل شاعر كان في عصره بالجد» (19).

2. الجد والهزل، مواقف وآراء

تباينت مواقف العلماء المسلمين من الهزل تبعا لتباين خلفياتهم المعرفية والمذهبية واختلاف تأويلاتهم للنصوص الدينية وسيرة السلف الصالح، فمن فئة تدم الهزل والمزاح وتنتهي عنه إلا ما قل منه لأنه مناقض للحلم والرزانة اللتين يجب أن يتصف بهما المسلم، إلى فئة ثانية تبيح الهزل وتحض عليه، بل ترى أن مزج الجد بالهزل يعد مطلبا مستحبا وعنوانا على الصحة النفسية.

1.2. الغزالي (505 هـ)

ومن أشهر المواقف التي تدم المزاح موقف حجة الإسلام الإمام الغزالي إذ يدرجه ضمن الآفات التي أحصاها في كتاب الإحياء، فهو مذموم إلا ما قل منه. فالضحك يسقط المهابة والوقار ويورث الضغينة ويجر إلى القبيح والعداوة، وهو عنوان الغفلة، يقول الغزالي : «أصله مذموم منهى عنه الإفراط فيه والمداومة عليه، أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه، واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميئ القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار.. ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتكم قليلا» ... وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه : من مزح استخف به» (20).

(19) الأغاني، ج. 20، ص. 89.

(20) إحياء علوم الدين، ج. 3، ص. 160-161.

ويورد الغزالي في سياق احتجاجه جملة من الأحاديث وأقوال السلف تدم الضحك ويخلص إلى أن المحمود هو التبسم «فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكا، والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم» (21).

ويرد الغزالي على القائلين بأن المزاح نقل عنه (صلعم) وعن أصحابه بالحديث الشريف «إني أمزح ولا أقول إلا حقا». وإضافة إلى أن مزاحه (صلعم) كان مقرونا بقول الحق وهذا ربما قد يتعذر على غيره يشير الغزالي إلى أن أغلب مزاحه (صلعم) ومطايباته كانت مع النساء والأطفال ويعلل ذلك بقوله: «فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل» (22). ويخلص في الأخير إلى أن «هذه مطايبات يباح مثلها على التدور لا على الدوام، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب الضحك المميت للقلب» (23).

وإذا كان هذا شأن آفة المزاح فإن السخرية وهي قريبة منه محرمة على الإطلاق، وقد أدرجها الغزالي تحت الآفة الحادية عشرة بعد حديثه عن المزاح، يقول عن السخرية والاستهزاء: «وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى (يأيتها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن). ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والإيماء» (24). وإذا كان رأي الغزالي في المزاح يجنب نحو النهي والتحريم أكثر مما يميل إلى الترخيص، إذ نجده يفتبره آفة ويحصى مساوئه دون أدنى ذكر لمحاسنه - وهذا رأي فقيه مشغول بعلوم الدين - فإن آراء أغلب الأدباء والإخباريين تحبذ الهزل والمزاح مدعمة رأيها أيضا بأحاديث الرسول (صلعم) وسيرة الصحابة والتابعين.

(21) المصدر نفسه، ص. 161.

(22) نفسه، ص. 163.

(23) نفسه، ص. 164.

(24) إحياء علوم الدين، ج. 3، ص. 164.

2.2. ابن عبد ربه :

فابن عبد ربه يعتبر الملاحظات والفكه ضرورية لتحقيق التوازن النفسي، وعنوانا على الصحة النفسية، يقول : «نحن قائلون بما ألفناه في كتابنا هذا، من الفكاهات والملح التي هي نزهة النفس وربيع القلب، ومرتع السمع، ومجلب الراحة، ومعدن السرور»⁽²⁵⁾. ويستدل على مذهبه هذا بأقوال الرسول (ص) فقد «كان النبي صلعم يضحك حتى تبدو نواجذه»⁽²⁶⁾ وهذا خلاف رأي المغالين الذين يذهبون إلى أن ضحكه (صلعم) كان تبسما بل إن ابن عبد ربه يدعم رأيه بأخبار من الإنجيل، «وفي بعض الكتب المترجمة أن يوحنا شمعون كانا من الحواريين، وكان يوحنا لا يجلس مجلسا إلا ضحك وأضحك من حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلسا إلا بكى وأبكى من حوله، فقال شمعون ليوحنا : ما أكثر ضحكك كأنه قد فرغت من عملك ؟ فقال له يوحنا ما أكثر بكاءك كأنك قد يئست من ربك ؟ فأوحى الله إلى المسيح : أن أحب السيرتين إلى سيرة يوحنا»⁽²⁷⁾.

3.2. شهاب الدين الإيشيهي (850 هـ)

يمثل الإيشيهي بكتابه «المستطرف في كل فن مستظرف» موقف الإخباريين وكتاب النوادر والطرف خير تمثيل، فقد خصص الباب الخامس والسبعين من كتابه للمزاح والنهي عنه وما جاء في الترخيص فيه وما جاء في الشطرنج واللعب به والنهي عنه والترخيص فيه،

فبعد أن استعرض بعض الأحاديث وأخبار السلف التي تنهى عن المزاح، وتعتبره يذهب بالمرودة ويجلب العداوة يخلص إلى ما جاء في الترخيص به إذ «لأنأس بالمزاح مالم يكن سفها، والله تعالى وعد في اللمم بالتجاوز والعفو فقال : الذين يتجنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم»⁽²⁸⁾. ويسهب الإيشيهي في الحديث عن مزاحه (صلعم)، وحتى يدعم مذهبه في إباحة المزاح نجده يخصص بابا بكامله وهو الباب السادس والسبعون

(25) العقد الفريد، 31، ص. 5.

(26) المصدر نفسه، ص. 6.

(27) نفسه، ص. 8.

(28) المستظرف في كل فن مستظرف، الإيشيهي، ص. 236.

للنوادير ويقسمه فصولاً تدور حول نوادر القراء والفقهاء والقضاة والنحاة والمعلمين والمتنبئين، ولعل الالفت للنظر في هذا المتن هو عدم استنكاف الابشيهي من ذكر نكت ونوادير خبيثة يصنفها الدارسون النفسيون عادة ضمن النكت العدائية والجنسية والغائبية .Scatological

3. الجد والهزل. أية علاقة ؟

1.3. الشمولية

اشتهرت في الثقافة العربية مجموعة من الثنائيات التي تطالع القارئ بين الحين والآخر في كتب الأدب وعلم الكلام وغيرها، كالعقل والنقل واللفظ والمعنى والحلم والجهل، والسيف والقلم والجد والعب والجد والهزل. واستعمال الجد إلى جانب الهزل أو المزج بينهما يعني أشياء متعددة ومتباينة حسب السياق وتبعاً لمقصدية المؤلف، كما أن هذا الاستعمال والمزج يرد في مستويات متباينة، على مستوى ثقافة بأكملها أو على مستوى المتن الواحد أو النص الواحد أو العبارة الفريدة، فمن بين المعاني التي تفيدها هذه الثنائية الشمولية : «استعمال هذه الثنائيات لا يقتضي دائماً التعارض والتناقض أو الصراع بين القطبين، فكما أن (شاب وعجوز) تعني كل شخص بمن في ذلك الشاب والعجوز فإن الهزل والجد تفيد الشمولية أكثر من التعارض» (29) وهذا ما نجده في تصدير كتب الأخبار والنوادر حين يشير المصنف إلى أن كتابه يشمل كل فن من الجد والهزل، بمعنى أنه يحاول الإحاطة بجميع فنون القول المفيد منها والمسلّي، فاستعمال هذه الثنائية هنا يعني محاولة الاستيعاب والإحاطة ويفيد معنى الشمولية وهذا هو المقصود بالحديث الشريف «رب اغفر لي هزلي وجدي».

2.3. التناوب

إلى جانب علاقة الشمولية التي تفيدها ثنائية الجد والهزل، هناك علاقة أخرى هي علاقة التناوب بين طرفي هذه الثنائية أو علاقة الحضور والغياب، فحضور أحدهما يقتضي

Mixture of Jest and earnest in classical Arabic literature. van Gelder. Journal of Arabic literature XXIII, p. 84.

غياب الآخر أو إرجاء حضوره إلى مكان وسياق آخرين . وهذا ما نستشفه من بعض كتب الأدب والأخبار ككتاب الحيوان للجاحظ ، وهذا التناوب يخدم أهدافا ديداكتيكية تعليمية كما سنرى ، غايتها شد اهتمام القارئ ودفع الضجر والسأم عنه ، والترويح عنه بين الحين والآخر بفقرات ومقاطع من الهزل . وقد يأتي الهزل في آخر المصنف ، بعد أن يستوفي المؤلف القول فيما هو جد ورزين ، ومن ثم فالهزل هنا يحتل مرتبة ثانوية ، كما هو الحال في «المستطرف» للإبشيhi ، بل إن الهزل يحتل في هذا الكتاب موقعا حرجا ، فهو يأتي مباشرة بعد باب عن تحريم الخمر ودمها والنهي عنها ، وقبله باب في الحديث عن ذكر الموت والدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها ، وهذا الوضع الحرج الذي يشغله الهزل في هذا الكتاب يثير لدى القارئ أكثر من سؤال ، حول مقصدية المؤلف ونواياه .

3.3. الإيجاب والسلب

وقد تفيد هذه الثنائية أحيانا معادلة أحد طرفيها موجب والآخر سالب ، فالجد هنا يوازي قيما محمودة ومستحبة تسلك سبيل الإيجاب ، على حين يعادل الهزل الهوى والباطل والسخف واللغو والعبث والهذيان ... الخ ، يقول اسحاق بن وهب : «فأما الجد فإنه كل كلام أوجبه الرأي ، وصدر عنه ، وقصد به قائله وضعه موضعه ، وكان مما تدعو إليه الحاجة ... وأما الهزل فما صدر عن الهوى» (30).

ونستشف من كلام ابن وهب عن أوجه الحديث هذه الدلالة السلبية للهزل في مقابل الجد ، إذ نجده يقرن هذه الثنائية بمجموعة من الثنائيات الضدية طرفها الأول إيجابي وطرفها الثاني سلبي يقول : « وأما الحديث فهو ما يجري من الناس في مخاطباتهم ومجالسهم ومناقلهم ، وله وجوه كثيرة ، فمنها الجد والهزل ، والسخيف والجزل ، والحسن والقبيح ، والملحون والفصيح ، والخطأ والصواب ، والصدق والكذب ، والنافع والضار ، والحق والباطل ، والناقص والتام ، والمردود والمقبول ، والمهم والفضول ، والبلوغ والعيي» (31).

ولا يمثل الهزل دائما الجانب السلبي في هذه المعادلة بل نجده يمثل الطرف الإيجابي عند واحد من أشهر المنتصرين للهزل وهو الجاحظ يقول : «فالجد مبغضة والمزح محبة وصاحب الجد في بلاء ما كان فيه ، وصاحب المزح في رخاء إلى أن يخرج منه

(30) البرهان في وجود البيان ، ص. 246-247.

(31) المصدر نفسه ، ص. 246.

والجد مؤلم وربما عرضك لأشد منه، والمزح ملذ وربما عرضك لألذ منه، فقد شاركه في التعريض للخير والشر، وباينه بتعجيل الخير دون الشر» (32).

4.3. التعاون

1.4.3. الأخذ والتشارك

تكون العلاقة بين الجد والهزل أحيانا علاقة تعاون وتشارك، وذلك أن أحدهما يستعين بالآخر ويتوسل به في سبيل تحقيق غايات ومقاصد يرمي إليها الخطاب، وفي هذا السياق نجد الجد يستعين ببعض أساليب الهزل، والهزل يتوسل ببعض أساليب الجد، ولعل حازما القرطاجني هو أهم من فصل القول في معاني الجد والهزل وطرقهما، وسبل التفاعل بينهما فالعبارات في الطريقة الجدية تتحرى فيها المتانة والرصانة، أما في الطريقة الهزلية فتتحرى الحلاوة والرشاقة وقد تأخذ كل طريقة بطرف من الطريقة الأخرى، يقول حازم مفصلا القول في طبيعة هذه العلاقة بين الهزل والجد: «لما كان أهل طريقة الهزل يشاركون أهل طريقة الجد في كثير من المعاني والعبارات ويستعملون ذلك في كلامهم وطريقتهم... وجب أن تأخذ طريقة الهزل من طريقة الجد أخذا خاصا، وألا تأخذ طريقة الجد من طريقة الهزل شيئا - اللهم - إلا أن يشير مشير إلى غرض من أغراضها مما لا يقدح في طريقة الجد كبير قدح... فأما ما تأخذه طريقة الجد من طريقة الهزل فهي المعاني التي في ذكرها في بعض المواضع إطراب وبسط للنفوس ومذهب في ما خف من الإحماض...»

وتشارك طريقة الجد طريقة الهزل في أن ينحى عباراتها نحو الرشاقة في المواضع التي يحسن ذلك فيها،... فأما ما تأخذه طريقة الهزل من طريقة الجد فتأخذ منها المعاني التي ليس فيها تعرض للقدح فيها... ومما تأخذه طريقة الهزل من طريقة الجد أيضا إيراد بعض المعاني العلمية على نحو من الاحالة عليها ببعض معاني الهزل والمحاكاة... وتشارك طريقة الهزل طريقة الجد في الأخذ بطرق من المتانة...» (33) إذن فالعلاقة بين الجد والهزل هي علاقة تأثير وتأثر وأخذ وشراكة، غير أن هذا لا يتم في جميع الأحوال وعلى جميع المستويات، فمواطن التشارك والأخذ محدودة كما أشار إلى ذلك حازم.

(32) رسائل الجاحظ، التبريع والتدوير، ص. 93-94.

(33) منهاج البلغاء، 329-335.

2.4.3. هزل يراد به الجد

يسعى الهزل في هذا المقام إلى بلوغ غايات ومقاصد جادة، ومن ثم فهو وسيلة فعالة وناجعة للوصول إلى ذلك، وهذا الأسلوب البلاغي يصنف عادة ضمن المحسنات المعنوية التي يشملها علم البديع، والمقصود به أن يذكر الشيء على سبيل الهزل واللعب والمباشطة ويقصد به أمر صحيح في الحقيقة، يقول صاحب (أنوار الربيع في علم البديع): «هذا نوع من البديع لطيف المسلك رشيق المأخذ، وهو عبارة عن أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه، فيخرج مقصوده مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب، وهكذا قالوا وأرى أنه لا يختص بالمدح والذم، بل كل مقصد أخرجه المتكلم هذا المخرج عد من هذا النوع، سواء أكان مدحا أو ذما، أو غزلا أو شكوى، أو اعتذارا أو سؤالاً أو غير ذلك» (34).

ومن الأمثلة عليه قول أبي نواس في هجائه لتميم:

إذا ما تميمي أتاك مفاخرا فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب ؟

فسؤال التميمي عن أكله الضب هزل مبطن بالجد، لأن تميما في الواقع والحقيقة كانت تأكل الضب وتعيير بذلك. ومن الأمثلة على ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم للعجوز التي سألته عن دخولها الجنة: «لا يدخل الجنة عجوز» فبكت، فقال: «إنك لست بعجوز يومئذ قال تعالى: (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا)» (35).

ومن الأمثلة الطريفة في هذا الباب ما روي عن أشعب أنه حضر وليمة لبعض ولاة المدينة - وكان رجلا بخيلا - فدعا الناس ثلاثة وهو يجمعهم على مائدة فيها جدي مشوي، فكان الناس يحومون حوله ولا يمسسه أحد منهم لعلمهم ببخله. وكان أشعب يحضر مع الناس ويرى الجدي، فقال في اليوم الثالث: زوجه طالق إن لم يكن عمر هذا الجدي بعد أن ذبح وشوي، أطول من عمره قبل ذلك، (36) فهذا اللون ظاهره الهزل وباطنه الجد بخلاف التهكم فإن ظاهرة الجد وباطنه الاستهزاء.

(34) أنوار الربيع في علم البديع، علي صدر الدين المدني، ج. 2، ص. 166.

(35) إحياء علوم الدين، الغزالي، ج. 3، ص. 162.

(36) خزائن الأدب، ابن حجة الحموي، ص. 69.

وتفيد هذه العبارة : «هزل يراد به الجد» معنى عاما، حيث يقصد بالجد المصلحة والمنفعة، والهزل الذي يرمي إلى تحقيق نفع مادي أو معنوي لا يختلف عن الجد في شيء بل إنه عين الجد، وقد تكون المنفعة هي الراحة والاستجمام، يقول ابن وهب عن الغايات من استعمال الهزل : «أما الحكماء والعقلاء فاستعملوه في أوقات كلال أذهانهم وتعب أفكارهم ليستجمعوا به أنفسهم، ويستدعوا به نشاطهم، ويروحووا به عن قلوبهم خوفا من ملالها وكلالها ... ومن قصد هذا الهزل فالجد أراد لأنه قصد المنفعة وما يوجب الرأي في سياسة نفسه وعقله وإجمام فكره وقلبه» (37).

3.4.3. هزل الهوى جد

الهزل أسلوب فعال في عملية التواصل الاجتماعي، والتفاعل بين الأفراد والشرائح الاجتماعية، فهو يستعمل في نقل الحقائق والمعلومات، بل إنه في موضع الهوى والعلاقة بين الجنسين يقصد به الجد، وقد فطن أبو تمام إلى هذه الحقيقة منذ زمان حين قال :

نوى كانقضاض النّجم كانت نتيجة من الهزل إن هزل الهوى جدّ

فلا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها سجيّة نفس كل غانية هند

فالمتكلم قد يقصد من مقوله سواء أكان نكتة أم نادرة أم غير ذلك معناه الظاهري والحقيقي والجاد، خصوصا بين الجنسين : رجل وامرأة، وباستعمال الهزل في هذا المقام يتجنب المتكلم الهازل توريط نفسه في التعهد بما قاله، ويسهل عليه التملص والتبرؤ من فحوى كلامه بقوله : «إني أمزح فقط ! لهذا فالارسالية الهزلية قابلة للسحب Retractable إذ الهازل يمكن أن يسحب كلامه ويتراجع عنه دون أن يفقد ماء الوجه أو يقع في الحرج، فالهزل في النكت والنوادر الجنسية تكتيك ومنوارة جادة ترمي إلى سبر الآخر واستطلاع رأيه، وانقاد ماء الوجه إذا ما قوبل طلب الهازل بالرفض والإعراض.

تبعا لهذا : «فاستعمال الهزل يمكن أن يساعد المصدر Source (المتكلم) على تحمل المسؤولية عن أفعاله أو التنصل منها، ويمكن أن يلهم الشجاعة والجرأة أو يريح

(37) البرهان في وجود البيان، ابن وهب، ص. 247.

ويخلص من الإرتباك والحرص، يمكن أن يتسبب في تعهدات مبدئية، أو يخلص ويحرر الفرد من أي تعهد. فالهزل يمكنه أن يفني بهذه الأغراض لأنه عموماً يمكن أن يؤول بطرق متباينة في نفس الوقت ... وهذا الوضع يمكن المصدر Source والهدف Target أو السامعين من مرونة كبيرة في السلوك» (38)، وخير مثال على هزل الهوى الذي يراد به الجد ما حكاه الإبيسيهي من أن أعرايا خرج بالليل فإذا بجارية جميلة، فراودها فقالت: أما لك زاجر من عقلك إن لم يكن لك واعظ من دينك؟ فقال والله ما يرانا إلا الكواكب. فقالت له ياهذا وأين مكوكبها؟ فأخجله كلامها فقال لها إنما كنت مازحاً! (39).

4.4.3. الهزل والجد في الشعر

يعتبر الهجاء نموذجاً واضحاً للتعاون المثمر بين الهزل والجد، ومثالا على التمازج التام بينهما من أجل غايات جادة هي فرض رقابة على السلوكات الشاذة والفساد الأخلاقي والحقاقات الإنسانية والكشف عن جهل الخصم وبلادته بل إن «الهجاء الحقيقي موجود حيث يوجد الهزل بدرجة أكبر والغضب بدرجة أقل وأدنى درجات الاستعلاء» (40) ويعتبر هجاء ابن الرومي المليء بالهزل والسخرية مثالا على التمازج الكلي بين الجد والهزل. يقول القاضي الجرجاني عن أبلغ الهجو: «فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض» (41) وتمثل قصيدة المديح بمقدمتها الغزلية نموذجاً آخر للتعاون والتجاور الذي يمكن أن يحصل بين الهزل والجد، هذا التجاور الذي غدا شرطاً ضرورياً لبناء لحمة هذه القصيدة وسداها. وقد وردت الإشارة إلى المقدمة الغزلية بالهزل عند الشعراء والنقاد على حد سواء، في مقابل القسم الخاص بالمديح والذي يوصف بالجد، يقول أبو تمام في وصف مدحته في محمد بن عبد الملك الزيات، وقد صدرها بمقدمة غزلية شب فيها بأروية، بلغت إثني عشرة بيتاً

الجد والهزل في توشيع لحمتها والتبيل والسّخف والأشجان والطّرب (42)

Humour as a tool of social interaction, R. Kane, Jerry Suls and J. Tedeschi in : it's a funny thing humour, p. 13.

(39) المستطرف في كل فن مستظرف، ص. 362.

(40) A theory of laughter, Krishna Menon, p. 111.

(41) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، ص. 24.

(42) ديوان أبي تمام، ج. 1، ص. 258.

4. أبو عثمان الجاحظ والهزل : طبيعته، دوره، وظيفته

لم تقف جهود الجاحظ في ميدان الضحك عند سرد النوادر ورواية النكت والتوسل بأسلوب السخرية في كتاباته، لكنه حاول أن يترك لنا منظومة نظرية، وضح فيها الدور الاجتماعي للضحك ووظيفته التعليمية والديداكتيكية والشروط التداولية لعملية الضحك.

1.4. سوسولوجيا الضحك

فحرصا منه على توضيح الدور الاجتماعي للضحك نجده يعدد محاسنه ويسهب الحديث في فضله بمقارنته بأصداده كالبكاء والجد، يقول عن فضل الضحك «ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبني : كأنه يضحك ضحكا، وقد قال الله جل ذكره : (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحى) فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ... ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق، وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم - ومزح وضحك الصالحون ومزحوا، وإذا مدحوا قالوا : هو ضحك السن، وبسام العشيات» (43).

ومن مظاهر تطفنه إلى سوسولوجيا الضحك ومساهمته الفعلية في الاندماج والتفاعل الاجتماعيين إشارته إلى العدوى النفسية للضحك وانتقاله من فرد لآخر، وحجم الضحك وقيمه وسط الجماعة، ذلك أنه يزداد وينتشر كلما وجد صدى له، يقول في قصته مع محفوظ نقاش : «فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة وقد أكلته جميعا فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن، ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به لأتى عليه بالضحك أو لقضي علي، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب» (44).

(43) البخلاء، ص. 6.

(44) المصدر نفسه، ص. 124.

والضحك عنده ملكة إجتماعية غايتها تصحيح الخطأ وتصويب الإعوجاج وفضح الإدعاء والجهل والغرور وفي هذا الإطار يمكن فهم هزله وسخريته في رسائله خصوصا في رسالتي الجد والهزل، والتربيع والتدوير.

كما أن الجاحظ اختار الهزل قناة للتعبير عن آرائه ولتمرير مواقفه حول بعض القضايا الاجتماعية الساخنة، خصوصا ما تعلق منها بالمحرمات والتابوهات كالجنس والدين، ومن ثم يمكن اعتبار هزله في هذه المواطن ضربا من الجد، فاستعمال الهزل في مثل هذه القضايا يعفيه من المسؤولية ويبرئ ذمته، ذلك أن: «الخطاب الساخر يحمل القليل من المسؤولية بالنسبة للمتكلم، بمعنى أن محتواه الجاد يمكن إنكاره دائما» (45).

وقد أشار الجاحظ إلى المحرم في سياق الهزل وتحت غطاءه، وعلى لسان محاوريه في مجادلاته ومناظراته التي يمكن اعتبارها مجرد أسلوب أدبي لعرض أفكاره، وقد بين طه الحاجري (46) كيف أن الجاحظ كان ينزع إلى وضع الأحاديث وتوليد الأقوال ثم ينسبها إلى غيره، يقول في رسالة تفضيل البطن على الظهر ملمحا إلى ظاهرة الشدود الجنسي واللواط: «عصمنا الله وإياك من الشبهة، وأعاذنا وإياك من زيغ الهوى... وقد كان كتابك يا ابن أخي -وفكك الله- ورد علي تصف فيه فضيلة الظهور وصفا يدل على شغفك بها، وحبك إياها وحنينك إليها وإيثارك لها، وفهمته». (47) وقد توسل الجاحظ بالهزل للحديث عن هذا الموضوع في مجتمع محافظ يسهل فيه الاتهام بالزندقة والمجون، ودافع عن آرائه مستشهدا بأقوال السلف بل إنه تهجم على بعض من يتحرج من الحديث في الأمور الجنسية يقول: «وبعض من يظهر النسك والتقشف إذا ذكر الحر والأير والنيك تقزز وانقبض، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من المعرفة والكرم والنبيل والوقار إلا بقدر هذا التصنيع». (48) وقد تمكن الجاحظ من عرض آرائه في هذا الموضوع في رسالة مفاخرة الجواري والغلمان على لسانه صاحب الجواري وصاحب الغلمان، وختم هذه الرسالة بجملة من النوادر والنكت الجنسية الفاضحة.

Linguistic theories of Humour, salvatore attardo, p. 328

45)

(46) البخلاء، تحقيق طه الحاجري، المقدمة، ص. 40.

(47) رسائل الجاحظ، ج. 4، ص. 155.

(48) مفاخرة الجواري للغلمان، رسائل الجاحظ، ج. 2، ص. 92.

ومن مظاهر استغلاله للهزل في نقد الخرافات والأباطيل، وبعض الأخبار والأحاديث الضعيفة قوله حين أراد أن يوضح أن الطير لا يسمى طيرا لأنه يطير: «وقد يسمون الدجاج طيرا ولا يسمون بذلك الجراد، والجراد أطيّر، والمثل المضروب به أشهر، والملائكة تطير، ولها أجنحة، وليست من الطير، وجعفر بن أبي طالب ذو جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء، وليس جعفر من الطير»⁽⁴⁹⁾. من ذلك أيضا تهكمه على تهافت رأي بعض المفسرين من أن السنور خلق من عطسة الأسد يقول «وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار، أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بفأر، فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير فلذلك السنور أشبه بالأسد، وسلح الفيل زوج خنازير فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل - قال كيسان: فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير وتلك السنورة حواءها، قال أبو عبيدة لكيسان: أو لم تعلم أنت أن لكل جنس من الحيوان آدم وحواء، وضحك فضحك القوم»⁽⁵⁰⁾. فالضحك هنا وسيلة لهدم هذا الزعم والادعاء. وعلى الرغم من أن الجاحظ عرض لموضوع المحرم في سياق الهزل فإنه لم يسلم من تهجم بعض الفقهاء والعلماء المحافظين فقد عابه ابن قتيبة لتهكمه واستهزائه من بعض الأحاديث. يقول عنه: «وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الأسود وأنه كان أبيض فسوده المشركون وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا»⁽⁵¹⁾.

والحق أن الجاحظ إنما كان ينتقد باستهزائه بعض الآراء الضعيفة والتفسيرات التي لا يقبلها العقل ولا يقرها المنطق.

ولم يتناول الجاحظ الغير فحسب بالضحك والاستهزاء بل نجده من فرط عنايته بهذا الموضوع يروي النوادر والطرف عنه نفسه لإيمانه بقيمة الضحك الاجتماعية والنفسية في تصعيد الأخطاء وتطهير النفس من الشعور بالنقص، من ذلك ما حكاه من إلحاح الذباب عليه⁽⁵²⁾.

(49) الحيوان، ج. 1، ص. 30.

(50) نفس المصدر، ج. 1، ص. 146.

(51) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، ص. 41.

(52) الحيوان، ج. 3، ص. 347.

2.4. ديداكتيكا الضحك

حرص الجاحظ في مصنفاته على إضحاك القارئ - بين الحين والآخر - والترفيه عليه، خوفاً من ملالته وسآمته وتبرمه بما يقرأ أو يسمع، حيث كان يرى في الهزل وسيلة ناجعة لاستدراج هذا القارئ إلى مواصلة المطالعة وحمله على الاستمرار في الدرس والتحصيل، ولهذه الغاية التعليمية الديداكتيكية حشد في مصنفاته مجموعة من النوادر والملح والفكاهات التي تنشط الذهن وتدخل السرور على القلب، وقد كان الطابع العلمي لكتبه يقتضي هذا الأسلوب الذي يراوح بين الجد والهزل، بل إن بعض موضوعات كتبه كالبلخل والحيوانات يسهل تصنيفها في باب الهزل وكثيراً ما يكون الحديث عنها أدعى للضحك والتفكه، وقد أثار هذا الأسلوب في الكتابة اعتراض بعض العلماء عليه (53)، فعابوا عليه ذلك، وهاجموه من منطلقات أخلاقية ودينية غير مدركين الغاية التعليمية التي كان يرمي إليها من وراء ذلك. وكثيراً ما برر الجاحظ في مؤلفاته أسلوبه هذا وبين أنه لم يقصد الدعابة لذاتها، وإنما لغاية هي حمل القارئ على مطالعة ما تزخر به مؤلفاته من جد، يقول عن ذلك: «لا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل، وعلى أن الكتاب إذا كثر هزله سخف، كما أنه إذا كثر جده ثقل. ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ، وينفي النعاس عن المستمع، فمن وجد في كتابنا هذا بعض ما ذكرنا، فليعلم أن قصدنا في ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء لقلبه والاستمالة لسمعه وبصره» (54).

ولجوء الجاحظ إلى مزج الجد والهزل في كتبه العلمية ينم عن تفهم عميق لنفسية القارئ ووعي كبير بالدور التعليمي الذي يمكن أن ينهض به الهزل، ذلك أن طاقة الإنسان على تحمل الجد والمثابرة عليه محدودة ومتناهية، فهو في حاجة دائماً إلى ما ينشط فكره ويجدد قواه «وإن كنا قد أمللناك بالجد وبالاحتجاجات الغريبة، فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه من السرور والضحك والاستطراف ما لا يبلغه حشد أحر النوادر وأجمع المعاني» (55).

(53) انظر فتية، تأويل مختلف الحديث، ص. 41، والقاضي الباقلاني، إعجاز القرآن، 115.

(54) النساء، رسائل الجاحظ، ص. 153.

(55) الحيوان، ج. 3، ص. 5.

ولم يكتف الجاحظ بالدفاع عن آرائه في الهزل وتبرير أسلوبه في الكتابة بل نجده ينصح المصنفين بتوشيح كتبهم ببعض الهزل ويجعل ذلك قاعدة للكتابة يقول « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف، وعلى العقل المحض، وعلى الحق المر، وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس، وتستفرغ المجهود» (56). هكذا نخلص إلى أن الجاحظ توسل بالهزل في كتاباته لغايات تعليمية وديداكتيكية، وأحسن استعماله في المواطن التي يستدعيه فيها السياق والمقام دون تكلف أو ابتذال.

3.4. آداب الهزل وشروطه

دأب الجاحظ في مصنفاته على الإشارة بين الفينة والأخرى، إلى آداب المزاح وشروط نجاح عملية الضحك، وعلى الرغم من أن إشارات جاءت موجزة ومتفرقة في ثنايا كتبه، فإنه يصح اعتبارها لبنات أساسية في نظريته حول الضحك، وفي هذا الإطار أشار إلى موضوع الهزل ومقامه ومقداره وخصائص صاحب الهزل، وشروط نجاح النادرة والنكتة.

فموضوع الهزل -في رأيه- قائم على الخطأ، وهو أقرب إلى السخف والباطل واللهو منه إلى شيء آخر، ومن سماته المبالغة والغلو والتزويد يقول «والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان، وهو باب متى فتحه فاتح، وطرق له مطرق، ولم يملك من سده مثل الذي يملك من فتحه، ولم يخرج بقدر ما كان قدم من نفسه، لأنه باب أصل بنائه على الخطأ ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سخف، ومن شأنه التزويد، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ» (57). فمن صفات صاحب الهزل إسقاط المروءة وقلة التحفظ وتجاوز المقدار في الحشمة.

والجاحظ يربطه بين الهزل والخطأ والسخيف يلتقي مع أرسطو الذي يذهب إلى أن المضحك ضرب من الذميم أو المشوه الذي لا يبلغ درجة الإيلام أو الإيذاء.

(56) النساء، رسائل الجاحظ، ص. 153.

(57) التريب والتدوير، رسائل الجاحظ، ج. 3، ص. 73.

ألح الجاحظ في تناوله للهزل أيضا على ضرورة مراعاة مقتضى الحال ومطابقة المقال للمقام، وهذا الإلحاح منه جاء نتيجة نزعة الكلامية واشتغاله بالجدل والمناظرة. فعلى صاحب الهزل أن يحسن اختبار زمن الهزل ومكانه ومقداره، وأن يراعي نوعية الجمهور المتلقي لخطابه. يقول «ولو استعمل الناس الدمثة في كل حال، والجد في كل مقال وتركوا التسميح والتسهيل، وعقدوا في كل دقيق وجليل، لكان الشر صراحا خيرا لهم، والباطل محضا أرد عليهم، ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل. فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه» (58).

كما تعرض إلى ضرورة التناسب بين موضوع الهزل وأسلوب Style وطريقة modalité تأديته فالسخافة والرشاقة أقرب إلى الهزل في حين أن الأسلوب الجزل الرصين المتين يكون أنسب للجد. يقول: «وأصناف العلم لا تحصى منها الجزل ومنها السخيف، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله، وداخل في حد المزح، فأبدلت السخافة بالجزالة انقلب عن جهته وصار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكرهها ويغمرها» (59). وقد توسع حازم القرطاجني أكثر من الجاحظ في الحديث عن طرق الجد والهزل وأساليبها (60).

وفي محاولة من الجاحظ للإحاطة بمختلف جوانب عملية الإضحاك نجده يشير إلى الشروط التي يجب توافرها في النكتة والنادرة، من ذلك إشارته إلى أن الإعراب يفسد نوادر المولدين، إذ يجب رواية هذه النوادر على علاقتها ومع ما فيها من لحن وخرق لقواعد اللغة المعيار: «وأنا أقول: إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبه تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللغة وتلك العادة، فإذا دخلت على هذا الأمر -الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه- حروف الإعراب والتحقيق والتثقيب وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته» (61).

(58) المصدر نفسه، ص. 80.

(59) مفخرة الجواري والغلمان، رسائل الجاحظ، ص. 91.

(60) منهاج البلغاء، رسائل الجاحظ، ص. 91.

(61) الحيوان، ج. 1، ص. 282.

وهذا الخرق لقواعد اللغة والخروج عن المعهود هو المثير للضحك، إذ أن السامع يتحرر بسماعه لهذه النكت من رتابة المنظومة اللغوية ومن عبء قواعدها الصارمة، ويدخل ضمن هذا النمط من النوادر النكت اللغوية والألغاز والتورية. وقد عني المحدثون بهذا الضرب من الفكاهة في إطار نظريات الانعتاق والارتياح (release and relief theories). وهي تذهب «إلى أن الهزل يحرر من التوتر ويعتق الفرد من المكبوتات والأعراف والقوانين»⁽⁶²⁾. ومن أنصار هذه النظرية سبنسر، وفرويد الذي يربط بين المظهر اللعبي للهزل اللغوي ومتعة الأطفال في لعبهم بالكلمات.

كما ربط الجاحظ من جهة أخرى بين نجاح النادرة وشهرة الشخص المنسوبة إليه، إذ أن هذا الارتباط يفتح أفق انتظار لدى السامع ويهيئ نفسه للضحك «وليس يتوفر أبدا حسنها إلا بأن يعرف أهلها وحتى تتصل بمستحقها وبمعادنها واللائقين بها، وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة وذهاب شطر النادرة. ولو أن رجلا ألزق نادرة بأبي الحارث جمين والهيثم بن مطهر ومزبد وابن أحمر، ثم كانت باردة، لجرت على أحسن ما يكون، ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النواء، وإلى بعض البغضاء لعادت باردة ولصارت فاترة»⁽⁶³⁾.

December 14 -1996, Indiana, Bloomington, U.S.A

Linguistic theories of humour, p. 50.

(62)

(63) البخلاء، ص. 7.

لائحة المصادر والمراجع

مصادر ومراجع عربية

- الإبيشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ط : 2، 1952، مطبعة البابلي، مصر.
- الإصفهاني أبو الفرج، الأغاني.
- أبو تمام، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر :
- البخلاء، تحقيق طه الحاجزي، دار المعارف.
- الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الحلبي، مصر.
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1965.
- الجرحاني، القاضي محمد بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي.
- الحموي ابن حجة، خزانة الأدب.
- الحوفي أحمد، الفكاهة في الأدب، أصولها، أنواعها، دار نهضة مصر، 1966.
- ابن الرومي، الديوان، شرح الشيخ محمد شريف سليم، دار إحياء التراث، لبنان.
- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، دار مكتبة الحياة، بيروت
- الضبي، المفضل، المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط : 3، مصر 1964.
- ابن عبد ربه، العقد الفريد، مكتبة صادر، بيروت.
- العقاد، عباس محمود، جحا الضاحك المضحك، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969.
- الغزالي، إحياء علوم الدين، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1967.
- ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت.

- القرطاجني حازم، منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، 1966.
- المدني، علي صدر الدين، أنوار الربيع في علم البديع، تحقيق شاكر هادي.
- ابن منظور، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ط . 1967.

المراجع الأجنبية :

- Attardi Salvatore, Linguistic theories of humour : Mouton de Gruyter, 1994.
- Chapmam, A and Foot, H. It's a Funny thing humour Pergamon Press 1991.
- Chateau, Jean : Le sérieux et ses contraires, in Revue Philosophique, Tome CXI, 1950
- Escarpit, Robert, L'humour P.U.F. Collection Que Sais-je 877.
- Gelder, Van, Mixtures of Jest and earnest in classical Arabic Literature, in Journal of Arabic Literature ; XXII
- Menon, Krishna; A Theorie of Laughter; London 1931.
- Vial, Charles, Al-Gahiz, Quatre essais Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire.